مجلة الرائد

العدد : ٢١٠ الموافق في صفر ١٤٢٠ هجري ٦ / ١٩٩٩ ميلادي

عنوان المقال : الطب في مواجهة التحدي الحضاري	بقلم : د. علي أبو عامر

من الواضح أن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ، لم يعد يقتصر على مجال دون غيره ، بل أصبح تحدياً حضارياً شاملاً ، بسبب عملية التغريب التي غزت مختلف مجالات الحياة . لذا لا يمكن للمواجهة أن تكون إلا شاملة ، تنخرط فيها كل الطاقات الفاعلة في الأمة لتبني مع الزمن وعلى أرض الواقع البديل الحضاري الإسلامي إنطلاقاً من مختلف أوجه الفعل الإنساني . وفي هذا الاتجاه يندرج مشروع البديلالإسلامي في الطب .

لقد أدت الهيمنة الثقافية والحضارية الغربية إلى انتشار نظم الغرب وعلومه وقوانينه وهياكله الإدارية في جميع أنحاء العالم ؛ ومن المعروف أن الثقافة الغربية ترتكز على مفهوم مادي للحياة والإنسان ؛ مما يجعل الطب الغربي ينظر إلى الإنسان نطرة آلية مادية صرفة . أضف إلى ذلك أن اعتبار الطب الغربي ممثلاً أوحداً للممارسة الطبية والعلم الطبي يعتبر إجحافاً في حق الثقافات الأخرى ، والتي لها تاريخها وتجربتها الخاصة ، حيث تنظر إلى الإنسان نظرة شاملة تجمع بين الناحية المادية والروحية في وحدة متناسقة .

وليست النظرة الشمولية للإنسان باعتباره وحدة مكونة من وروح ومادة ، خاصة بالحضارة الإسلامية ، بل هي مشتركة مع بقية الحضارات باستثناء الحضارة الغربية التي تعتبر حالة فريدة في العالم وفي تاريخ البشرية .

ولقد أصبح واضحاً أن على كل أمة أن تبني حياتها الاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها على أسس عقدية وفكرية متصلة بمرجعيتها ، وإلا كانت أمة فاشلة تعيش حالة من ازدواج الشخصية .

إن الطب الغربي يعترف بالجانب النفسي في الإنسان ، ويعترف أحياناً بأهميته في علاج بعض الأمراض ، ويخصص زاوية معينة لما يسمى بالأمراض النفسية – العضوية Psicosmaticas –. غير أن الفرق بين النظرتين الغربية والإسلامية في هذا المجال يتجلى في :

* يتحدث الإسلام عن الروح التي لها معاني وأبعاد أوسع بكثير من مصطلح النفس Psique في الثقافة الغربية .

ففي الوقت الذي يتعلق مصطلح الروح في الثقافة الإسلامية بالنفخة الإلهية العلوية المقدسة ، يجنح مصطلح النفس Psique في الغرب نحو معنى آلي وظيفي مادي منبثق من عمل عضو من أعضاء الجسم وهو الدماغ ، مع إفرازات هرمونية معينة تؤدي بالإنسان إلى الشعور بالفرح أو الحزن أو الأمل أو اليأس ، أو غيرها من المشاعر .

* يعترف الطب الغربي بدور الجانب النفسي في إحداث بعض الأمراض فقط ، والتي يسميها الأمراض النفسية العضوية Psicosmaticas ، كما يعترف بشكل ضمني بالتأثير الإيجابي أو السلبي للجانب النفسي على الصحة عموماً ، ولكن لا نجد أي عناية تذكر بهذا الجانب في طرق علاج أكثرية الأمراض ، وإذا كانت هناك إشارة للموضوع ، فإنها تكون باعتبار النفس في إطارها المادي البعيد عن المعنى الديني للروح في الإسلام وغيره من الأديان ، وهذا يفوت على الطبيب الكثير من وسائل العلاج الناجعة .

فيتعين علينا إذن ، في هذا الموضوع إعادة تعريف مصطلح الطب الإسلامي : هل هو الطب الذي لا يستعمل إلا ما ورد في القرآن والسنة من وسائل العلاج ؟ أم هو الطب الذي يريد العودة إلى الوسائل المبتكرة من قبل الأطباء المسلمين في العصور الذهبية كابن سينا وابن النفيس وغيرهم ؟ وتجنباً لأي فهم خاطئ ، نقول أن المعنى الصحيح للطب الإسلامي هو : العلم والممارسة الطبية اللذان يرتكزان على النظرة الشمولية الإسلامية للإنسان ، (جسد وروح) ويستعملان في التشخيص والعلاج جميع الوسائل المتاحة في إطار التطور العلمي الحديث ، سواء كانت غربية أو شرقية ، لكن شريطة ألا تكون غير مشروعة ، ويجب ، في نفس الوقت ، ألا يخجلا في اللجوء إلى الوسائل الروحية والمادية المنصوص عليها في الأثر الصحيح .

ولا شك أنه من المفيد لبناء علم مثل هذا ، الرجوع إلى الأطباء الأوائل في الحضارة الإسلامية ، لمعرفة كيف تعاملوا مع موضوع الطب في ظل المجتمع الإسلامي الأول ، الذي لم يعانِ من رواسب التخلف الفكري والانحطاط الحضاري والتبعية الثقافية والشعور بعقدة النقص أمام الأمم الأخرى .

فإذا أخذ أبناء الصحوة الإسلامية من الأطباء على عاتقهم مواجهة التحدي الحضاري من زاوية تخصصهم ، بحثاً

وممارسة ، مع جهد مماثل من طرف الصيادلة ، فإن هذا سيؤدي مع الزمن إلى إرساء قواعد طب أكثر ملاءمة لطبيعة الإنسان ، وأكثر إنعاشاً للطب الوقائي ، وأكثر مناسبة للأوضاع الاقتصادية للبلاد الإسلامية ، كما سيخلص هذه البلاد بشكل كبير من أسر الصناعة الصيدلية الغربية ، التي بقدر ما هي مكلفة بالنسبة للقدرة الشرائية للمواطنين ، بقدر ما تعتبر سلاحاً استراتيجياً لا تتورع الدول المهيمنة في عالم اليوم ، عن استعماله عند أية مواجهة .